نبأ من الصين

من مبحث لاحد علماء الفرنسيس في « المجلة » الباريزية

كان لانتصار اليابانيين على الروس رنة فرح في الصين والهند فاعتبرت الصين بهذه الحرب وتنبه في أبنائها شعور الوطنية وراحوا بعد ان كانوا يفزعون من العُدد الحربية التي هي أدوات التمدن الاوربي ينزعون عنهم لباس الخوف وتأبى نفوسهم الاستسلام للبيض على نحو ما كانت حالهم منذ قرون وقلما أُثر في الماضي عن الصينيين انتفاض أو ثورة على الاجانب بل كانوا أبداً يحتقرون برابرة الغرب في سرهم ويعتبرونهم دونهم من حيث الذكاء والمدنية . أما الآن وقد أثبتت الجيوش اليابانية لاهل الجنس الاصفر ان ما أقامه الاوربيون من العقبات في سبيلهم يمكن تذليله فقد نفضت الصين عنها غبار الكسل واطرحت الجبن جانباً وهبت من سباتها عازمة ان تشترك في الجهاد الزمني الذي يتمخض به الجنسان الابيض والاصفر ولم تكن الحرب اليابانية الروسية الا امارة من اماراته ومقدمة من مقدماته

تألف في الصين حزب يطالب بالاصلاح فأرادت الحكومة بادئ بدء ان تحل عراه مخافة ان يكون مبتسراً فلا تجني البلاد منه غير توطئة السبل للاغيار من الاوربيين ولكنها عادت فتركته وشأنه فكثر اشياعه لكثرة انتشار الافكار في مملكة ابن السماء بأنه لا امان من تقسيم الاوربيين او الاذلال بيد اليابانيين الا اذا صلحت حالها ولذلك انضم الى حزب (كانغ يو واي) المصلح الشهير كثير من العمال الذين يخشون على بلادهم من التمزق . وما لبثت الافكار الجديدة ان سرت الى بلاط امبراطورة الصين بفضل بنات سفير ابن السماء في باريز يوكانغ اللائي تهذبن أحسن تهذيب فاختارتهن الامبراطورة نديمات لها فاغتنمن هذه الفرصة وانشأن يؤثرن حتى في الامبراطورة نفسها .

وانك لترى اليوم الامبراطورة — وهي صاحبة الصين من أقصاها الى اقصاها — بعد ان كانت منذ خمس سنين بعيدة كل البعد عن الافكار الحديثة وكانت عزلت ابن أختها عن الحكم لانه ظهر انه ميالٌ لحزب الاصلاح قد أخذت اليوم تدخل بذاتها في طريق الاصلاح وعزمت كل العزم ان تنظم مملكتها وانشأ مستشاراتها العارفات على مافيهن من حذق ودربة يقنعنها بما تصيراليه المملكة من الدمار اذا تُركت وشأنها لان المطامع محدقة بها . فأي مسئولية تلحق الامبراطورة وبأي وجه تقابل أجدادها بعد موتها اذا هي غادرت المملكة السماوية نهب أيدي الناهبين ممزقة كل ممزق .

وينسب وصول حزب الاصلاح الى غاياته لأولئك التلاميذ الذين يتلقون العلم في المدارس خارج بلادهم وخصوصاً لمن يدرسون في كليات اليابان وكلهم يد واحدة في محاولة اصلاح بلادهم ذاك الاصلاح الذي به أصبحت اليابان مملكة مغبوطة مرهوبة الجانب والبأس وان كثيرين من هؤلاء التلاميذ ينزعون الى الثورة ويريدون ان يقطعوا كل صلة مع الماضي وان يقيموا على انقاضه أساس ملك جديد يتمكن من ضبط قياد الصغر عامة بيده . وكان من نتائج أعمالهم الشريفة ان انبث هذا الفكر على التدريج في عقول اربعمائة مليون نسمة من سكان الصين وانشأوا صحفاً باللغة العامية أخذ منشئوها ينقدون أحوال المملكة السماوية ويطالبون بتغيير ادارتها ويحملون الحملات المنكرة على كل عامل يقف في طريق الاصلاح ويناوئ سياسته غير مبالين بما قد ينتج لهم ذلك من العذاب الشديد أحياناً

ولم يتخلف النساء أيضاً عن الاشتراك في هذه الحركة اذ كان لهنّ من بنات الوزير نديمات الامبراطورة المشار اليهن أعظم مثال ينشطهن ويحتذين مثاله فأسسن مدارس لبنات الحكام وأسست الامبراطورة من مالها الخاص مدرسة خاصة لتهذيب بنات موظفي قصرها . وكانت المرأة الصينية الى هذا العهد تعيش في جهالة جهلاء وحالها

نسق واحد مزوجة كانت أم عازبة لا تخلل حياتها سلوى أدبية. وان كانت من الغنيات تمتاز باقطاعها عن كل عمل عن نساء الشعب . أما اليوم فقد تغيرت حالها بالمرة فان الفتيات الصينيات يذهبن الى الكليات اليابانية ينجزن فيها دروسهن مع التلاميذ الصينيين . وأصبحت تطبع مجلات خاصة بالنساء وذلك في المدن الصينية الكبرى وتصدر كتب حديثة تبحث في شأن المرأة الصينية

وكانت الامبراطورة أصدرت أمراً سنة ١٩٠٢ تنصح به لقومها ان يبطلوا عادة تعصيب الارجل لتكون صغيرة في الكبر فعادت اليوم تلغي هذه العادة البربرية رأساً بسعي مرسلي البرتستانت فتألفت جمعيات لهذا الغرض أخذ أعضاؤها على أنفسهم أن يتركوا أرجل بناتهم بدون تصغير ويمنعوا أولادهم من التزوج بزوجات ضُغطت أرجلهن في صباهن حتى صغرت . وهذه النهضة النسائية من الادلة على انقلاب حالة الصين في الزمن الاخير اذ ما كان يظهر قبل عشر سنين ان تدخل أمثال هذه الاصلاحات ويطرأ مثل هذا التبديل في أخلاق سكان مملكة ابن السماء وعاداتهم

وكانت الامتحانات المدرسية القديمة تجمع كل مرة من ٢٥٠ ألفاً الى ٣٠٠ ألف مرشح ينهم بعض الشيوخ فمنذ سنتين انقلبت الحال وأبدلت تلك الدروس الخطابية على نصوص كونفوشيوس حكيم الصين والتمارين الصعبة في الانشآء التي كان يكفي للمرء ان ينجح فيها حتى يعين عاملاً أو مهندساً أو قائداً أو طبيباً أو قاضياً أو أمير بحر الى آخره

وقد وضع الفاحصون في الامتحانات الاخيرة بأمر الامبراطورة مسائل لم يعهد مثلها للمرشحين من التلاميذ ربما لا تجرأ الكليات الفرنسوية ان تضع مثلها واليك سؤالين منها : « هل يحسن التمدن الاوربي أم لا يحسن بأمة لم تحصل عليه فقد أصبحت يابان دولة من الطراز الاول بقبولها له وعلى العكس في مصر فانها سقطت تحت نير انكلترا لما أدخلت اليها التمدن الغربي فماذا يستنتج الطالب من ذلك للصين ؟»

والسؤال الثاني : «أي الطرق المشروعة تعمد اليها الصين لتكره الولايات المتحدة على الغاء القوانين التي تقيد الصينيين عن الهجرة الى أمريكا »

ولقد أوقع رخص أجور العملة الصينيين ومنازعتهم للعملة الاميركيين بلاد الولايات المتحدة في حيص بيص فاصبح العامل منهم لا يكسب قوته الا بشق الانفس ففقدت بذلك ملايين من الريالات ولم يكتفوا بذلك بل حالوا دون البضائع الاميركية وتصريفها في مصارف الصين . وفي العام الماضي قضوا على التجارة الصينية في أقليم منوليا وقد درست البعثة التي أنفذتها الصين الى أوربا ما ينبغي لامة متحضرة من الاوضاع السياسية والمدنية لتكسر الصين قيود التقليد بعد ان كانت قروناً ترسف فيها وتصبح الصين ولها دار ندوة وانبها يعرف الانتخاب بعد ان ظلت عشرين قرناً في حروب وغارات متواصلة ومذابح لا نهاية لها كان الصينيون اذا لم يتحاربوا في خلالها بعضهم مع بعض يلتقون مع القبائل الرحّل في الشمال والسيتين والهونسيين والاتراك والتتر وقد نسي الصينيون منذ مئتي سنة ما كانوا يمتازون بهِ من الشجاعة وذلك على عهد أسرة مانشو الحاكمة الآن وما لقنتهم اياه من الاستكانة وحيتهُ الى قلوبهم من السلم واحتقار السلاح وحمله . بَيد ان ظفر اليابان الاخير أضرم في قلوبهم حب الغارة وعادت اليهم شجاعتهم السالفة وأخذت الصين تعد لها جيشاً وطنياً تستعين بهِ على دفع الطواري، نظمتهُ على النسق الاوربي وهو يبلغ اليوم مئة الف جندي متخرجين على يد ضباط المان ويابان . وسيصبح عدد جيشها بعد خمس سنين خمسمائة الف جندي منظم . وقد سُلب حكام الولايات امتيازاتهم الحربية ومن شكا منهم ذلك عُزّر وغُرّم غرامة تصرف في التجهيزات الحربية